

الفنون ومظاهر الزينة في بلاد فارس القديمة

المدرس

نمير احمد كامل

كلية التربية للعلوم الانسانية - جامعة الأنبار
العراق

الخلاصة

مما لا شك فيه ان الصبغة الفنية لأي عصر ولأي أمة ستبنى على الثقافة والنهج السائد لتلك الدولة او الحقبة التي عاشتها، ومن هنا كانت تقوم مظاهر الحياة الفارسية القديمة على العقيدة التي وضعها زرادشت الذي ظهر في حوالي النصف الاول من القرن السادس ق.م والذي اتى ليوحد بين الهين احدهما يمثل الخير ويتمثل في النور وقد اطلقوا عليه اسم اهورامزدا والآخر يمثل الشر ويوجد في الظلام واطلقوا عليه اسم اهرام وقد قدس الايرانيين النار واتخذوها رمزا للخير والنور اما الكهنة المسؤولون عن هذه الديانة فكانوا يعرفون بالكهنة المجوس الذين تميزوا بمعرفتهم على حاضر الناس ومستقبلهم. كان الفرس يدهنون الجثة بالشمع قبل الدفن او يتركونها للجوارح لتنهشها وكان سلوك الناس قائم على الفضيلة المطلقة والشرف الشامخ والعز الباذخ وحسن المعاشرة والتأدب . وكما هو معروف فقد بدأ الاستيطان في إيران في الألف الثامن ق.م في سلسلة جبال زاغروس، وبدأ في كردستان الإيرانية في الألف السادس ق.م، وبدل على ذلك ما عثر عليه المنقبون من أوان فخارية عليها رسوم مؤطرة بخطوط هندسية ملونة لحيوانات وطيور، ومن تشكيلات لشخوص أنثوية وحيوانات من الصلصال المشوي. وفي الألف الخامس ق.م نُظِم الري ورُوض الجاموس في سهل خوزستان، وبدأت أعمال التعدين في هضبة إيران المركزية، وفي الألف الخامس ق.م قامت دولة عيلام ومركزها سوسة في جنوب غربي البلاد، وفيها عثر على رقم تحمل كتابة صورية، وعلى منحوتات صغيرة وأختام أسطوانية.

المقدمة

دلت الأواني المصنوعة من حجر الطلق على علاقات كانت قائمة ما بين إيران وبلاد الرافدين، يضاف إلى ذلك أن إيران في الألف الثالث ق.م كانت منطقة عبور حجر اللازورد من أفغانستان إلى بلاد الرافدين، وأنها استوحت الكثير من ثقافتها وطابعها الفني الذي يخلد انتصاراتها من الفن الأكدي الرافديني، وأن الكتابة المسمارية الرافدية حلت محل الكتابة العيلامية في إيران منذ نحو 2200 ق.م، وفي الألف الثاني ق.م بنى حاكم سوسة أنتاشي غال نحو 1200 ق.م قصراً ومعابد وزقورة ضخمة، أما العمارة في الألف الأول ق.م فلم يبق منها سوى مقابر الميديين الضخمة.

ابتدأ ظهور الفن الفارسي الاخميني في زمن حكم الملك كورش وقد اقتبس الفرس من الحضارات الكثيرة التي احتلوا بلادها وبالتالي استفادوا من فنونهم، حيث كان الايرانيون على درجة كبيرة من المهارة في صناعة الاواني الذهبية والفضية وخاصة تلك الاواني التي استعملها الفرس في قصورهم ويتضح ذلك من اناء شراب ذهبي مشكلة قاعدته على هيئة اسد رابض، كما عثر على مجموعة كبيرة من الاثار الفضية والذهبية ومنها اناء فضي قاعدته بشكل حيوان مركب وفوهته مزخرفة بأشكال نباتية. بشكل عام، كانت النماذج التي وصلت الينا من هذا العصر قليلة جداً، وبالنسبة لفن النحت فلم يعثر على تماثيل كبيرة، حيث يقتصر ما عثر عليه على بعض الرؤوس المصنوعة من الحجر والمعدن لشخصيات فارسية غير معروفة كما عثر على تماثيل صغيرة ادمية معدنية، ويظهر من طريقة نحت رأس لامير فارسي التأثير الواضح بالطابعين السومري والاشوري. لقد زينت قصور فارس بروائع من النحت البارز الذي يمثل وفود الدول التي سيطر عليها الملك دارا الثاني وهي تقدم الهدايا الى ملك الملوك، حيث كان يمتاز الفن الاخميني بقوة التعبير والواقعية والدقة بتنفيذ الخطوط والتشابه الكبير بينها وبين فنون الحضارات القديمة المنظرة.

ملاحظ تأثر الفن الفارسي

إن أقدم مدينة أنشأت في الهضبة الإيرانية هي أقبطان الواقعة على تخوم همدان الحالية (336 كلم جنوب طهران)، وتاريخها يعود الى سنة 800 ق.م ويعدها مؤرخ عمارة فارس (أرثر بوب) بأنها الأولى التي استعملت مبادئ تخطيطية عمرانية ومعمارية (1). أما أقدم زقورة في إيران، فأنها تقع في الأحواز المتاخمة للسهل العراقي والتي تعتبر تاريخياً وجغرافياً جزء منه، وأنشأها الملك العيلامي (جوكا زنبيل Choga Zanbil) وأكتملت في عهد الملك (أونتا ش Untash) قرب سوسة أو الشوش عام 1250 ق.م. ولا ترقى أقدم الفنون الفارسية الى أبعد من عهد قورش (529 - 549 ق.م)، وكانت مدينة (برسيبوليس) أو (فارثيا) تعج بالمعماريين والفنانين من بلاد وادي الرافدين خلال الحقبة الأخمينية، فجاءت آثار المدينة الدارسة صنو لمدن وفنون الأشوريين. ولدينا مثال نحت الثور المجنح في ثنابا قصور مدينة (برسيبوليس) تقليداً لثور نينوى، وحسبنا أن الثور لم يكن مقدساً لديهم كما كان الحال لدى الأشوريين، والذي نجد أنصابه في مداخل مدنهم وقصورهم في نينوى وخرسباد وغيرها. ومن الجدير ذكره أن الأثريين الفرنسيين قد وجدوا "مسلة قوانين حمورابي" البابلية ليس في بابل وإنما من عمليات تنقيبهم في مدينة (سوسة) أو (الشوش) الواقعة في الأحواز، بعدما انتزعت من مكانها في بابل إبان حالات المد والجزر بين القطرين. وتعد الحضارة الساسانية الأهم كونها جاءت في نهاية المطاف، كما أن الساسانيين لم يكن لهم صلة بفارس البتة فلغة دواوينهم كانت الأرامية العراقية، وأن عاصمتهم طيسفون أو المدائن (منطقة سلمان باك) لم تكن على هضبتهم بل في السهل الرسوبي وعلى تخوم بابل واليوم تقع 25 كلم جنوب بغداد. اما عمارتهم فهي محض سياقات للعمارة الرسوبية العراقية وأن أبعد أثر لهم لا يتعدى رمية أميال عن الحدود السياسية الحالية، وأن مكوثرهم في التاريخ لم يتعدى الأربعة قرون وهو غير ذي شأن أمام أربعين قرناً سابقة لهم من المنتج الحضاري المحلي.

ويؤكد هذا الأمر الباحث المصري الدكتور فريد الشافعي، حينما يحدد آثار منطقة بايكولي (Paikuli) التي فيها اثر للملك نارسي (Narse) والتي تؤرخ لسنة 294م أو أبعد من ذلك قليلا في (قصر شيرين) وكذلك (سرفستان) و(فيروز آباد) او (سوسة) في (الأحواز) وكذلك في (دستجرد) وكل هذه المدائن متاخمة للحدود العراقية ولم يأت ذلك الأمر اعتباطاً.

ونجد آثارهم داخل العراق كما في منطقة (الأحيمر) أو (كيش) وتقع جنوب المدائن (طيسفون) العاصمة الكبرى للساسانيين كما ورد ذكرها، وكذلك مدائن الحضر و أشور في منطقة الجزيرة و مدينة الحيرة التي خرجت الكوفة من صلبها وتمخضت عنها مدينة النجف اليوم. وثمة رأي بصدد التجديد في طرز العمارة الفارسية يورده الكونت (دي جوبينو) حينما يقول: (إن الإيرانيين لم يبتكروا شيئاً جديداً في الفنون، فسواء أكان في عصر الأخمينيين أم عصر الفرثيين أم بعد ذلك إبان عصر الساسانيين، ولم يكن للفرس طراز أو فن خاص بهم، بل إنهم اقتبسوا من غيرهم من الأمم، وأمكنهم في النهاية أن يخرجوا من هذه الأذواق فناً نطلق عليه الفن الفارسي (2)). ويقول الدكتور الشافعي في سياق تواريخ الطرز: (لم تمكث فارس في مكان القيادة إلا أكثر قليلاً من قرنين في العصر الأخميني (331-550 ق.م)، ثم عادت بلاد العراق بعد تلك الفترة الى مكانتها القيادية السابقة وذلك منذ بداية العصر السلوقي (3). ويستخلص الدكتور فريد الشافعي ثلاث معطيات جوهرية في فهم إشكالية التداخل بين الأثر الفني الفارسي مع نظيره في بلاد وادي الرافدين وهي:

- 1- أن العمارة الأخمينية التي سبقت العهد الفارثي والتي وجدت آثارها في فارس هي من أصول مشتقة من التقاليد والأساليب الآشورية القديمة التي موطنها العراق.
- 2- إن العمارة الفارثية التي لم يعثر على أمثلة منها خارج أراضي العراق إلا ما ندر، متناثراً في الأجزاء الغربية من بلاد إيران المتاخمة للعراق.
- 3- أن القصور الفارسية التي أرساها ملوك أعجبوا بالروائع التي شاهدها في العراق ومصر وآسيا الصغرى. وكانت هذه العمارة وليدة هوى الملوك وهوسهم بكل غريب ومبهر، وليس لتلك الطرز أصول في بلادهم ولاسيما في جوهرها أي خامة البناء التي تفرضها طبيعة أرضها، أو متطلبات العيش على هضبة فارس الجبلية. لذا فقد اندثرت عمارتها مع الاخمينيين. لكنه الى جانب هذه العمارة كان ثمة أخرى أقتبسها سكان البلد، ولازمتهم من منابع الحضارة في سومر، على غرار الكلدانيين و الآشوريين، حيث تعرفوا على المساكن المعقودة الصالحة لوقايتهم من حرارة الشمس المحرقة، و شيذوا ولا سيما في مقاطعات الأحواز (Susian) منازل ذات سقوف تحملها عوارض من جذوع النخيل، وحصر من سعف النخيل أو الصفصاف، حيث وضعت فوق غرف ضيقة، أشبه ما تكون بالممرات، كما في السنن البنائية العراقية (5). و يذكر المؤرخ اليوناني (أسطرابون 61 ق.م- 15 م) في سياق وصفه للأحواز: (لحماية المساكن من وهج القيط، كانت السقوف تغطي بزراع (50 سم) من التراب.

وكان ثقل هذا التراب يفرض بناء جميع المنازل ضيقة مفرطة في الطول، ولو كانت الغرف متسعة لاختنق ساكنوها). ويذكر عالم الآثار الفرنسي (أرنست بابلون): (ولما كانت شروط البلاد المناخية، اليوم كما كانت عليه في الماضي، فطريقة البناء الحالية هي الطريقة عينها، التي استعملها سكان إيران الأقدمون. ويصادف المسافر منازل تختلف باختلاف ثروة أصحابها، وقد علتها قباب و عقود وسطوح وفق المتطلبات المحلية. فمن الأكيد أن الإيرانيين الذين عاصروا الأخمينيين عرفوا، العقد والقبه بعد جيرانهم على ضفاف دجلة).

وهذا ما ذهب إليه المستشرق (ديولافوا) الذي قال (نصادف اليوم عقوداً معرشة، وعقوداً مثلثة، في عقود كنائسنا القوطية في القرن الثالث عشر، وهي سبان مع عناصر الهندسة الاهوازية والبيزنطية) (6). وثمة حقيقة أن كثير من الحضارات العالمية تكون ذات صبغة عسكرية أكثر من كونها منتجة للفكر والعمارة، فاليونانية مثلا كانت متقنة كما هي الإسلامية، بينما الرومانية كانت سياسية وتجارية.

والحال ينطبق على الدول الإيرانية التي ظهرت كقوة عسكرية تتطلع للانقضاض على العراق دائماً، بسبب خصبة أو إمتلاكه محطات خط الحرير التاريخي ومفاتيح طرق الدنيا، وهو جوهر خلافهم المزمع مع الرومان. وهكذا كانت دولة إيران سياسية وتجارية كذلك أكثر من كونها مثقفة تعنتي بالتدوين و عمران المدن والعمارة والفنون. ويعلق على ذلك دنجيب ميخائيل إبراهيم: (تفوق الفرس في ميدان الحروب ولكن أعوزتهم الثقافة والحضارة التي كانت للشعوب التي غلبت على أمرها) ويقول في موضع آخر على نتائج الغزو الفارسي للعالم القديم: (لقد ذك الفرس أركان الحضارات في الشرق، وامتدت حروبهم من حدود الهند حتى البحر المتوسط،

فزعزعو من أسس الحياة الثقافية في البلاد التي حكموها، وقطعوا خيوط الحضارات الأصلية ومزقوها شراً ممزقاً وقضوا على التطور الفني في كل مكان (7).

ولا بد أن نشير إلى أن إيران كانت مثل الشام تسبغ خصوصية وموامة على العناصر الراقصة القادمة من عهود وحضارات أقدم، حيث أن وفرة خامة الخشب الغابي في البيئات الشمالية من فارس، جعلها تستغل في تجسيد عناصر كانت أساسها من الأجر (الطابوق) كما الأعمدة في أصفهان وتبريز أو القباب في قزوین ونيسابور، مع إقرارنا أن الجنوب الإيراني مكث أميناً على العناصر الأولى وطيني الطرز بسبب شحة الغابات مثل العراق، وتجسد في مدائن شيراز وأزد وبستك. وبسبب وسع رقعة إيران الجغرافية.

فشتان بين عمارة شماله البارد وجنوبه الإستوائي والشبه صحراوي. حيث نجد المساقط المتضامة ووسع تداول خامة الخشب في الشمال يقابلها مساقط منفتحة ومهواة وشيوع لخامة المدر ومنتجها وعناصرها لدى عمائر أهل الجنوب.

العمارة في بلاد فارس

أعتقد الفرس ان النار مصدر النور فشيّدوا مبان حجرية مربعة الشكل توقد فيها النار ويظهر اللهب من فتحات في الجدران وكانت هذه المباني الحجرية الدينية بسيطة ولم يبتكروا في تشييدها شئ يذكر لذلك لم تكن لعقيدهم الدينية شأن في اعلاء فن العمارة الفارسية و منها هيكل النار المشيد من الحجاره الذي عثر عليه في مدينة نقش رستم.

بينما اشتهر الفرس ببناء القصور الفخمة والتي بناها ملوكهم لتفوق قصور الاشوريين والبابليين ولكي تليق بملوكهم الذين شمل حكم بعضهم امبراطورية كبيرة بدأت من حدود الهند الى وادي النيل، فشيّدت هذه القصور على هضاب اصطناعية هائلة وعالية وبتنوا الجدران بألواح من المرمر زينت بنقوش توضح صوراً من الاحتفالات الملكية وهو اسلوب من الواضح انه استمد من الفن الاشوري، ومن اشهر القصور هو ما عثر عليه في اطلال مدينة برسبوليس وهي تقع على بعد 60 كم الى الشمال الشرقي من مدينة شيراز الايرانية وكانت مركز حكم السلالة الاخمينية، حيث بنيت الضاحية على هضبة صناعية مساحة سطحها بحدود 135000م² وترتفع عن السهل بنحو 11م واقيم فوقها مجموعة من القصور وقاعات الاستقبال، ويتم الصعود الى هذه الهضبة بواسطة سلم مزدوج مكون من 111 درجة اتساع كل منها 7م وارتفاع الدرجة 10سم وعلى جانبي المدخل تماثيل لثيران ضخمة برؤوس ادمية.

اما الابتكار المهم الذي ظهر في فن العمارة الاخمينية فهو الجزء الذي يعلو تاج العمود والذي يستند عليه عوارض السقف، ويأخذ هذا الجزء شكلاً منحوتاً على هيئة حيوانيين متدابريين رابضين يتصل عنقاهما وجسماهما من الخلف، وقد تكون هذه الحيوانات ثيراناً او احصنة او نسوراً او تشكل رؤوسها على هيئة رؤوس ادمية.

على الجانب الآخر فقد اولى الفرس المقابر اهماماً استثنائياً، والتي بنيت او شديت على نوعين:

النوع الاول: وتكون مشيدة بالاجر وهي على شكل مدرج تعلوه حجرة بدون فتحات وهو مانراه في قبر الملك كورش في مدينة باسار غاد وهو بناء هرمي مدرج فيه ست درجات غير متساوية الارتفاع تعلوها غرفة واسعة .

النوع الثاني: وهي مقابر منحوتة في الصخر تضم التوابيت على جدرانها نقوش متنوعة مثل قبر نقش رستم في برسبوليس وهي قبور ملكية متتابعة منها قبر الملك دارا وقد حفرت على سطوح الجبل القائمة بأرتفاع 20م وتحمل واجهته بناء ذي اعمدة مع نقوش تشبيهية تمثل ملك الفرس واقفا على منصة يحملها رجال لا يمثلون الولايات التابعة له وفوقه الاله اهورامزدا ببارك الملك. ومما سبق نرى ان الكثير من التقاليد الفنية القديمة تمتد بجذورها الى التقاليد الفنية لمنطقة بلاد النهرين.

الفن في العهد الأخميني

تعد الامبراطورية الأخمينية من أوسع دول الشرق القديم انتشاراً، وقد ترعرع على امتداد هذه الامبراطورية فنٌ نهل من حضارات الشعوب المجاورة ولائم بين عناصرها الفنية مثل الثور الأشوري المجنح، والنحت الجداري الحثي والبابلي، والأشكال الفرعونية الرمزية، إضافة إلى تأثيرات الفن الإغريقي (8). بدأ الأخمينيون بناء القصور منذ القرن السابع ق.م، وكانت مدينة باسارغاد التي أسسها قوروش الكبير نحو سنة 550 ق.م، أول عاصمة أخمينية، ويقوم نظام البناء فيها على مبدأ القاعة المعقدة ببابيها الرئيسيين والثورين المجنحين، وفي الشمال الغربي لمدخل قصر قوروش يقع قصر الجلوس والاستماع، وإلى جانبه يقوم قصر الاستقبال والحفلات.

ومما يلفت النظر في عمارة هذه المدينة ظهور العمود الأخميني، وهو ابتكار العمارة الإيرانية الفذ، وهو عمود حجري مؤلف من بدن تحز محيطه قنوات شاقولية، ويقوم على قاعدة ناقوسية، ويحمل تاجاً مركباً، وفي قسمه العلوي منحوتة على شكل مقدمتي حصانين أو ثورين ملتصقين. لم يبق من معبد بازرغاده، الذي أقيم على أرض مسوّرة، سوى مذبحي النار الخالدة، وقاعدة من ست درجات وجدار برج مربع. وبعد ضريح قوروش الثاني العائد للقرن السادس ق.م من مباني المدينة المهمة، ويقوم هذا الضريح على أرض مربعة محاطة بسور من الآجر، ويتألف من حجرة واحدة مسقوفة بجمالون حجري، ويؤمه الزوار اليوم بوصفه ضريح قوروش الكبير. وأسس داريوس الأول عاصمته برسيبوليس في أواخر القرن السادس ق.م، وسهر خلفاؤه على تجميلها وتوسيع رقعتها، حيث بنيت المدينة على منبسط مرتفع، ويصعد إليها بدرجين رئيسين عريضين ومزينين بمنحوتات بارزة تتناول موضوعات من حياة الملك وعيد النوروز، وقد نحتت مقبرتها الملكية في مرتفع صخري، ويعلوها نحت بارز يمثل مشهداً من حياة الملك مع نص منقوش. وعرفت الحقبة الأخمينية أيضاً فناً تطبيقياً ذات قيمة عالية تتمثل في صحف وأوان وكؤوس من معدن ثمين مزخرفة ولها قبضات على أشكال حيوانات مختلفة، وفي تماثيل برونزية صغيرة الحجم، وفي أسلحة مزخرفة وحلي وأختام أسطوانية ورؤوس آدمية من اللازورد والأشكال (1) و (2) و (3) تبين بعض الشواهد الأثرية للفن الاخميني.



شكل (1)

عمود حجري في برسيبوليس



شكل (2)
صرح برسيبوليس



شكل (3)
نقش رستم

لقد استمر تأثر الملوك الاخمينيين في العمارة والانشاء رغم انشغالاتهم في الحروب، فالملك دارا انشأ العديد من القصور في بابل وهمذان وفارس الى ان وقع اختياره على سوسه العاصمة القديمة ليعلام ليتخذها عاصمة له، فأعاد بناءها واسبها قصرًا مبهرًا على مساحة واسعة وجمع فيه بين انماط عمارة القصور في بابل وبازر وجادة وميديا. كما وبنى مقراً ملكياً على مبعدة 40 كم جنوب غرب بازار جادة اطلق عليه الفرس اسم بارسا، وهي مدينة برسيبوليس الحالية في مساحة 450 متر طول و 300 متر عرض واستمر العمل في سوسة على عهد

ابنه وحفيده وقد جلب مواد البناء والعمال من كل ارجاء امبراطوريته نظار لعدم دراية الفرس ببناء القصور. كما استلهم الانماط الفنية والمعمارية لأبنيته من عدة اقاليم لاسيما مصر واليونان وبلاد الرافدين (9).



شكل (4)

أحد الابنية الملكية في برسبوليس

كان الفن الاخميني يحاكي الفن البابلي، وكانت العمارة بما فيها من نحت، مملوءة بالتفاصيل الدقيقة منها حائط الخالدين في متحف اللوفر. وكانت الالوان المستخدمة تمتاز بالحيوية. كما كان الاخمينيون يزينون قصورهم بتمائيل يونانية. ويبدو ان التماثيل كانت قاصرة فقط على الملوك وكبار الشخصيات وقد عثر على رأس جميلة لأميرة صغيرة وايضا على تمثال من البازلت الاسود قد عثر عليه عام 1972 للملك دارا نفسه وقد نقش عليه اسماء البلاد التي غزاها في مناطق الشرق القديم وقد كتب النص بالهيروغليفية (10). ويوجد في منطقة نقش رستم المبينه في شكل رقم (3)، مذبحان منحوتان في الصخر وهما غير متساويين في حجميهما ويلاحظ انهما متسعان عند القاعدة اكثر من القمة، ويوجد في واجهة كل منهما قبو على هيئة نصف دائرة ويرتكز على اعمدة مربعة تدخل في الاركان، ويوجد في اعلاها مائدة مربعة بها تجويف يوضع فيه النار. ويبدو محتملا ان هذين المذبحين كانا اقدم مباني برسبوليس وهما يرجعان الى تلك المدينة الفارسية القديمة وذلك قبل ان تنمو وتصبح عاصمة الدولة (11). ومن الاشياء الجديرة بالملاحظة في مباني برسبوليس استخدام الاعمدة في كل المباني بشكل كثيف، وشكلت قواعد الاعمدة على هيئة الناقوس وزينت جوانبها بنقوش على هيئة اوراق الشجر او زهور، ويوجد فوق القاعدة حلقة غير مزينة (12). ومما يجب الاشارة اليه ان الابتكار الوحيد الذي ظهر في فن العمارة الاخمينية فهو الجزء العلوي من العمود وهو التاج الذي تركز عليه عوارض السقف كما في الشكل رقم (4) وهو يأخذ شكلا منحوتا على هيئة حيوانين رابضين ويتصل عنقاهما وجسمهما من الخلف، وقد تكون هذه الحيوانات ثيرانا او أحصنة او مجرد حيوانات متشابهة، كما تشكل احيانا رؤوسها هيئة رؤوس آدمية (13).



شكل (4)

تاج عمود من قصر برسبوليس وهو عبارة عن حيوانين رابضين متدابرين

وهكذا نلاحظ ان فن النحت الفارسي في العهد الاخميني خصوصا كان نكماً لفن العمارة، ولم يكن فناً قائماً بحد ذاته. ولو أن فكرة نحت هذه الحيوانات مقتبسة من الفن الآشوري، الا ان وضع الحيوانين المتقابلين هو اسلوب فارسي صرف ومستمد من التراث الايراني الموجود في التماثيل البرونزية التي وجدت في اقليم لورستان. ومع ذلك فلم يعثر على تماثيل كبيرة تساعد على دراسة فن النحت الاخميني، ويقتصر ما عثر عليه على بعض الرؤوس المصنوعة من الحجر او المعدن لشخصيات فارسية غير معروفة، كما عثر على تماثيل صغيرة آدمية معدنية، حيث يظهر من طريقة النحت التأثير الواضح بالطابعين السومري والآشوري الذي عرف في بلاد ما بين النهرين وكما بالشكل (5) والذي يظهر رأس امير فارسي من حجر اللازورد. ومما يميز النحت الفارسي في العصر الاخميني هو قوة التعبير والواقعية، ويتجلى هذا في تيجان الأعمدة وفي النقوش الموجودة على واجهات ومداخل القصور في برسبوليس وفي القبور الصخرية (14).



شكل (5)

رأس امير فارسي من حجر اللازورد

اما أروع الاثار الاخمينية فهي الدرج الحجرية والارصفة والاعمدة التي اشرفنا لها حيث ان الملك دارا ومن جاء بعده من ملوك الفرس قد وضعوا بصمة في فن العمارة القديمة عن طريق الدرج الخارجية العظيمة والتي كان القادم من السهل ان يرقاها الى الربوة التي شيدت عليها قصورهم (15). هذا ولقد عاش الفن الفارسي الاخميني قرنان من الزمان تقريبا، من اواسط القرن السادس قبل الميلاد الى اواسط القرن الرابع قبل الميلاد، ونقلت عن طريقه بعض اصول فنون الشرق الاوسط القديم الى الغرب بواسطة الاغريق.

الفن في العهد الفرثي

البارثيون أو الفرثيون شعب من الشعوب الإيرانية القديمة، وقد عرفوا في البداية باسم برني، حيث استقر بعد ترحال في منطقة بارثية التي تولى الجزء الشرقي من إيران، وتمكن من التخلص من السيطرة السلوقية خلال القرن الثالث قبل الميلاد، وإقامة حكم أرستقراطي إقطاعي بزعامة أرشاك أو أرشاق Arsakes زعيم إحدى قبائلهم الذي أسس سلالة ملكية حاكمة عرفت باسمه (الأرشاقيون)، دامت ما يقرب من خمسة قرون. إن بدايات تاريخ الفرثيين غامضة بسبب قلة المصادر، ولكنها بدأت تزداد مع ارتفاع شأنهم بعد قيام ميترادانس الأول (171-138 ق.م) بحملة نحو الغرب احتل إبانها مقاطعة ميديا وأجزاء من بلاد الرافدين، واحتل عام 141 ق.م مدينة سلوقية

تعزيزت السيادة الفرثية على بلاد بابل خلفاً للسلوقيين في عهد أرتبان الثاني «أرتبانوس» عند اليونان (128-124 ق.م)، وشهدت مملكتهم ازدهاراً واتساعاً في عهد ميترادانس الثاني (123-88 ق.م)، وصار الفرات منذ عام 66 ق.م حدّها الغربي مع الامبراطورية الرومانية.

عدّ الفرثيون أنفسهم ورثة الأخمينيين، وادعوا الانتساب إليهم، واتبعوا في مملكتهم نظاماً مزيجاً من التقاليد الإيرانية والهلنستية، لكن السلطة المركزية كانت ضعيفة ومهلهلة، وذلك أن الأسر الأرستقراطية الإقطاعية الكبيرة كانت تتحكم باختيار الملك وتتوارث أهم الوظائف والقيادات. قُسمت المملكة إلى مقاطعات كبيرة يحكمها قواد عسكريون وولايات يحكمها ولاة (ستاربه). بينما كانت المدن الإغريقية تتمتع بحكم ذاتي يحد منه وجود ضابط وقاض ملكي. أما عن عواصم الفرثيين فكانت أولاها هيكتومييلوس الواقعة في خراسان، ثم انتقلت إلى اقباتان (همدان) في ميديا، وصارت منذ القرن الأول ق.م طيسفون الواقعة على نهر دجلة.

إن الآثار الفرثية التي عثر عليها في إيران قليلة، أبرزها هياكل النار الحجرية في برسبوليس ونورآباد ومشاهد منقوشة على صخور كصخرة تانجي سرواك. أما في بلاد الرافدين فقد كشف عنها في مواقع عدة أبرزها مبان سكنية وثلاثة معابد فرثية في اوروك وهي معبد صغير في الساحة الجنوبية للمبنى ومعبد الإله ميثرا وهو عبارة عن مبنى نصف دائري ومعبد جاريوس في جنوبي المدينة. والموقع الآخر هو نيبور ويضم ثلاث سويات من العصر الفرثي منها معبد صغير في القسم الشرقي من المدينة و القصر الصغير في وسط القسم الغربي والذي تتوسطه ساحة ذات أعمدة من الأجر المشوي. الموقع الآخر في بابل وقد ظهرت فيها سويات فرثية ضمن الشواهد المعمارية القديمة. ويمكن القول ان الفرثيون تأثروا في بادئ الأمر بالحضارة الهلنستية تأثراً كبيراً، ثم برز بينهم تيار مشبع بالروح الإيرانية الشرقية دعا إلى نبذها. وبقيت حضارتهم ممتزجة بملامح هلنستية وبابلية آشورية قديمة.

يتمثل الطابع الفني الفرثي الخالص في خصوصية أشكال الأشخاص المصورين، وتميّز أزيائهم وزيادة الاهتمام بجماليتها. كما تظهر في شواهدهم المعمارية عناصر وأساليب فنية متميزة. ان من اهم شواهد العمارة الفرثية هو مدينة طيسفون فهي المدينة والتي شيدها الفرثيون في منتصف القرن الثاني ق.م. بعد ان استولوا على العراق عام 141 ق.م. وبنوا لهم مدينة عرفت باليونانية باسم طيسفون. واستمر السكن فيها الى فترة الحكم الساساني. كما كان التصوير في العهد الفرثي يحتل مكانا هاما في تزيين الجدران، ومن المؤسف انه لم يبق من شيء، عدا بعض التزيينات الجدارية التي عثر عليها وهي في (كوى خوجه) وكانت ذات اسلوب رائع يحاكي اسلوب التصوير في تدمر ودورا اوروبوس. وعلى النقيض من فن التصوير، كان النحت نادراً ومحدوداً في عهد الفرثيين، وكانت التماثيل ذات طابع هلنستي ومثالها تمثال شامي المبين في الشكل رقم (6) وهو بأرتفاع 1.94 متر، وايضا يوجد تماثيل لاميرة فرثية من المرمر ذي اسلوب هلنستي كما في الشكل رقم (7) وهي يدل على مهارة وحرفية عالية (16).



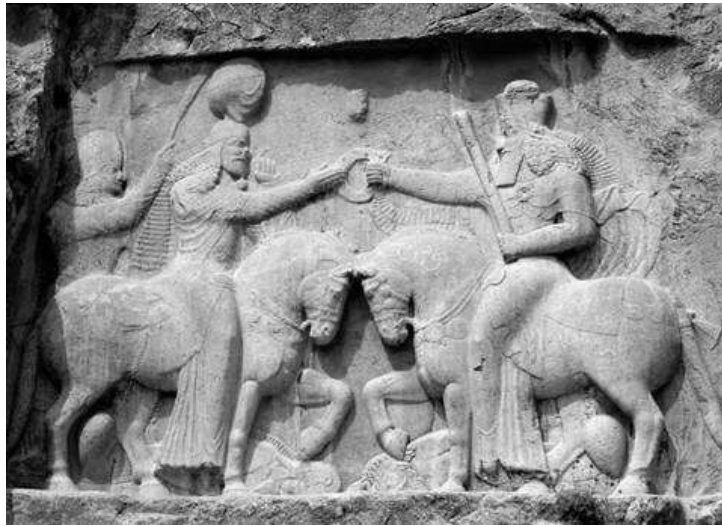
شكل (6)
تمثال لأمير فرثي من البرونز



شكل (7)
تمثال لرأس اميرة فرثية عثر عليه في برسبوليس

الفن في العهد الساساني

مازالت آثار الفن الساساني حاضرة الى اليوم في المشهد الايراني، حيث يوجد في إيران مجموعة من المنحوتات الصخرية ترجع إلى العصر الساساني عند نقش رستم ونقش شابور و طاقبي بستان، ومعظم هذه الاماكن بالقرب من مدينة برسبوليس، حيث نحتت القبور الاخمينية، و من هنا تعتبر هذه الاماكن المقدسة. حيث حرص الساسانيون على نحت نقوشهم في هذه المناطق و ذلك إشارة إلى وراثتهم الشرعية للإمبراطورية الأخمينية القديمة التي تعتبر دولة إيرانية وطنية يعتز بها الإيرانيون. وتشمل هذه المنحوتات على رسوم بارزة ضخمة منحوتة نحتاً شديداً في جوانب الجبال الصخرية ويظهر فيها الملوك الساسانيون و أتباعهم في مناظرة مختلفة، ولم تكن هذه المنحوتات تمثل زخارف قبور أو قصور، ولكنها كانت أشبه بتحف فنية قائمة بذاتها يقصد بها تخليد ذكرى الأسرة الساسانية، أو تخليد لبعض الذكريات التاريخية و الملكية و الوطنية مثل تولي الملك، والانتصار على الأعداء، و عقد مجالس البلاط، ومهارة الملك في الصيد و المبارزة. كما و يتضح من هذه المنحوتات الصخرية إعتزاز الساسانيين بالماضي و حبهم للتجديد و الجمع بين هاتين النزعتين جمعاً موفقاً. ولقد ترك ملوك القرون الأولى منحوتات صخرية تخليد لبعض ذكرياتهم، وهذه المنحوتات تتميز بالبروز الشديد الذي يجعلها قريبة من النحت الهلنستي، و ذلك على عكس النحت الأشوري أو الاخميني الذي يعتبر قليل البروز بالنسبة لنحت الساساني. ومن هذه الآثار مناظر تولية أردشير الأول 224-241 م يقع هذا النحت على نقش رستم (ناكشي رستم) ويتمثل في هذا النقش الإله أهورامزدا الذي يمنح الملك أردشير على هيئة حلقة يتطاير منها الأشرطة رمز القوة و السلطان (الأشرطة هي العصابت الطائرة) و يبسط الملك أردشير يده لتناول القرص كما في الشكل (8) وكذلك نقش طاق بستان والذي يمثل تنويج الملك الساساني خسرو الثاني، و يظهر الملك واقفاً في المنتصف و يمسك في يده اليمنى التاج المزين بالأشرطة و يتلقاه من الإله أهورا مزدا الذي يقف على يسار الملك و يقف على يمينه في الجانب الآخر الإلهة أناهيت تمد يدها بخاتم الملك الذي تتدلى منه الأشرطة كما في الشكل (9).



شكل (8)

الإله أهورامزدا يمنح الملك أردشير رمزا للقوة والسلطان



شكل (9)
نقش طاق بستان

تعددت أساليب الزخرفة عند الساسانيين مثل أسلوب الحفر والحز والمينا، و تحتفظ المتاحف بالعديد من التحف المعدنية الساسانية. حيث تخلف من العصر الساساني العديد من المنتجات الفنية و التطبيقية مثل الأواني و الكؤوس و الأباريق و قطع الأثاث و غيرها الكثير و بلغت اوج ازدهارها في القرن الخامس الميلادي قبل ظهور الإسلام، ثم بدأت في التدهور حتى القرن السادس بدأت الأشكال القريبة من الطبيعة تأخذ شكل التحوير و اختلفت النسب التشريحية بالنسبة للرسوم الأدمية و الحيوانية. كما أن هذه الصناعة لم يعد فيها الاتقان المطلوب. حيث يمكن التعرف على السمات الفنية للمنتجات الفنية الساسانية لأهم التحف المعدنية في هذا العصر مثل الكؤوس و الفازات المعدنية من الذهب و الفضة و البرونز و الحديد و الأباريق من مادة البرونز، و استخدم الذهب في صناعة الحلبي و زخرفة الأواني الفضية و استخدم الحديد في صناعة الأرائك و المناضد.



شكل (10)
اطباق من الفضة تعود للعهد الساساني

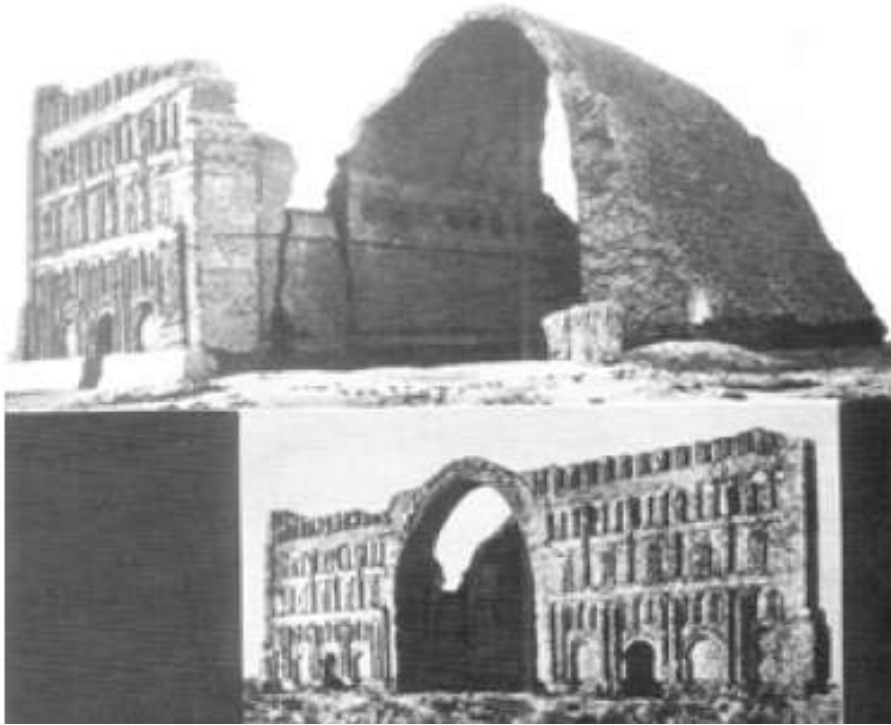


شكل (11)
ابريقان من الفضة يعودان للعهد الساساني



شكل (12)
فازة من الفضة بدون مقبض تعود للعهد الساساني

اما العمارة الساسانية فقد تميزت بالفخامة واستعمال العقود والقباب واستعمال الحجر للجدران والطوب المحروق للعقود والقباب، كما تأثرت بالفن الرافديني في الغرب وبالفن الفارسي القديم في الشرق. فلقد كانت العمارة تبنى من قوالب الطين المشوي أو من الحجر وكان الملاط من الكلس، اما الخشب فقليل الاستعمال، وكانت التغطية عبارة عن قبوات ضخمة، ويعتبر قصر طيسفون ، شكل (13)، الذي مرّ ذكره والذي بني في عصر كسرى في القرن السادس الميلادي من احسن الامثلة التي تشرح العمارة الساسانية.

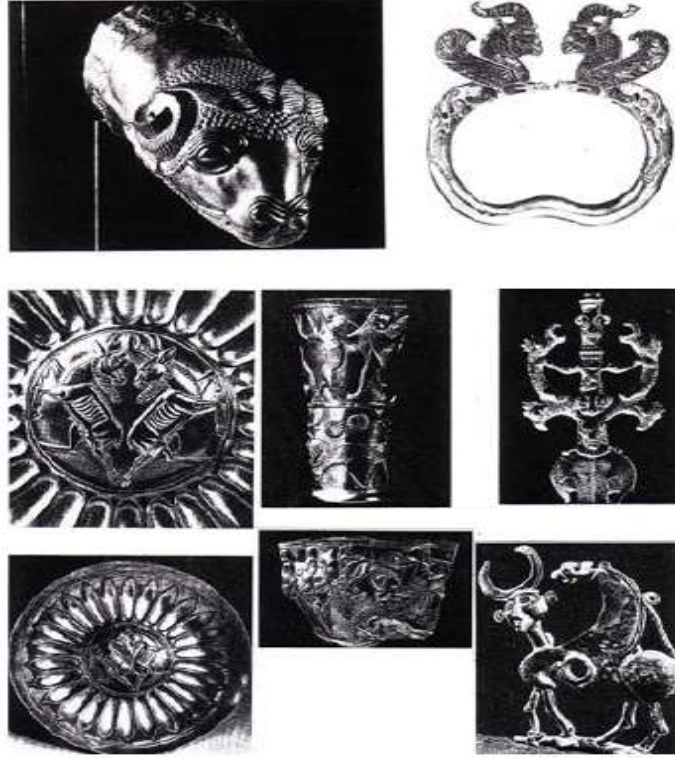


شكل (13)

بقايا ايوان كسرى في المدائن قرب بغداد

الفنون التطبيقية في بلاد فارس

ازدهرت الفنون التطبيقية خصوصاً في العصر الساساني ازدهاراً عظيماً سواء اكان ذلك في الاثاث ام المعادن ام النسيج ام الحلي، ومن اهم ما أنتجه الفن الساساني هي الاواني المعدنية التي ورد ذكرها والتي تضمنت زخارفاً ورسوماً لملوك في مواضيع مختلفة، وبينها عدد مزين برسوم حيوانات وطيور ورسوم آدمية. أما الخزف الساساني فكان متأخراً الى حد ما، وقاصراً على فخار بدون دهان او فخار بدهان من لو واحد وزخرفته بسيطة كما في الشكل (14) والذي يتضمن عدة نماذج للفن الساساني متمثلاً ببعض المنتجات الفنية (17).



شكل (14)

نماذج من الفن والزخرفة والحلي في العهد الساساني

كان الايرانيون على درجة كبيرة من المهارة الفنية في صناعة الاواني الذهبية والفضية وكذلك المعدنية الاخرى وخاصة الاواني التي استعملها ملوكهم في قصورهم. ويتضح ذلك من اناء شرب ذهبي مشكلة قاعدته على هيئة اسد رابض، كما في شكل (15) وشكل (16)، حيث يظهر الاسلوب الزخرفي المميز للفنان الفارسي.



شكل (15)

اناء شراب من العهد الساساني



شكل (16)

اناء شراب من العهد الساساني

كما لا يمكن ان نغفل صناعة الاختام الاسطوانية وخصوصاً في العهد الاخميني والذي يعتبر من احسن ما انتجه حفارو الاختام في الشرق الاوسط القديم، فهي تتميز بحفر دقيق يشبه الحفر على الاحجار الكريمة، ومن اروع النماذج التي عثر عليها في هذا الفن هو ختم يظهر الملك في العربة الملكية وهو يصطاد الاسود كما في الشكل (17).



شكل (17)

ختم اسطواني يعود للعهد الأحميني

الخاتمة

في وسع الانسان ان يقول عن الفن الفارسي ما يستطيع ان يقوله عن الفنون كلها تقريباً، وهو ان عناصره كلها مستعارة من خارج البلاد. ففقر قورش استعير شكله الخارجي من ليديا، واعمدته الحجرية الرفيعة منقولة عن مثيلاتها من العمد الاشورية مع شيء من التحسين، وبهوا الاعمدة الضخمة والنقوش القليلة البروز تشهد انها قد اوحت بها مصر ونقوشها، وتيجان الاعمدة التي على صورة حيوان كانت عبارة عن عدوى طالتهم من نينوى وبابل. اما الذي جعل فن العمارة الفارسي فناً قائماً بذاته ومختلفاً عن غيره من فنون العمارة فهو اجتماع هذه العناصر كلها والموائمة بينها، وهو الذوق الارستقراطي الذي رقق العمدة المصرية المهولة والكتل وأحالتها الى اكثر بريقاً ورشاقة، وتناسباً وتناغماً وقد تجسد ذلك في بربوليس.

الهوامش والمصادر

- (1) A.U. Pope- Persian Architecture
- (2) دي جوبينو، تاريخ الفرس؛ ص 273 .
- (3) فريد الشافعي، العمارة العربية في مصر الإسلامية، المجلد الأول، القاهرة، 1994، ص 162.
- (4) فريد الشافعي، المرجع السابق، ص 164.
- (5) يطلق اليوم اسم (الشوش) التي اشتهرت كقطاع في الحرب العراقية الإيرانية، وتسمى كذلك (سوسه) أو (السوس). واصل التسمية يعود للغة الأكدية، و هو (شمشان). و تسمية الأحواز متأتية أما من (الحوز) أي الاقتراع والتملك العربية أو من (الأحواض) الأرامية، نضرا لكثرة الأنهار والمياه فيها، ويسميتها الفرس خوزستان، والعرب (عربستان).
- (6) بابلون أرنست، الآثار الشرقية، ترجمة مارون عيسى الخوري، لبنان، 1989، ص 310.
- (7) موسوعة محيط الفنون، ص 49.
- (8) حسين محمد محي الدين السعدي، تاريخ الشرق الأدنى القديم، العراق- ايران - اسيا الصغرى، الجزء الثاني، دار المعرفة الجامعية، 1995، ص 254.
- (9) حسين محمد محي الدين السعدي، المرجع السابق، ص 263.
- (10) رمضان عبدة علي، تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته منذ فجر التاريخ وحتى مجيء حملة الاسكندر الأكبر، الجزء الاول ايران - العراق، دار نهضة الشرق، القاهرة، 2002، ص 152.
- (11) احمد امين سليم، دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، العراق - ايران، دار المعرفة الجامعية، القاهرة 1992، ص 383.
- (12) احمد امين سليم، المرجع السابق، ص 387.
- (13) عبد اللطيف سلمان، الفنون الفارسية الأخمينية، الجامعة الدولية الخاصة للعلوم والتكنولوجيا، ص 114.
- (14) عبد اللطيف سلمان، المرجع السابق، ص 115.
- (15) ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثاني من المجلد الاول، الشرق الأدنى، ترجمة محمد بدران، القاهرة، 1961، ص 448.
- (16) عبد اللطيف سلمان، المرجع السابق، ص 119.
- (17) عبد اللطيف سلمان، المرجع السابق، ص 120.